

## الرَّسَالَةُ الْأُولَى : لُغَةُ الشَّيْطَانِ (1) مَعَ بَنِي آدَمَ عَامَّةً

آجال معلومة وأيام معدودة - طالت أم قصرت - كتبها الله على بني آدم ، تبدأ بأول أنفاسه ونبضات قلبه رمزاً لعنوان الحياة ، وتنتهي بإعدام حركاته وسكناته توديعاً لها ، أودع الله فيها كثيراً من الآمال والرغبات والأمانى والأمنيات وقَعدها بقواعد الدِّين ، وضبطها بضابط اليقين حتى تظلَّ في ظلِّ دائرة الإيِّمان .

ولكن الشَّيْطَانُ أدرك هذه الحقيقة وعلمها ، وخبر جوهرها وعنوانها ، فأبصر ليلها ونهارها ، فانطلق يعدُّ لهم العَدَّةَ ، ويُجَيِّسُ لهم الجيوش ، ويجهِّز لهم أخصب الوسائل والسُّبُل التي تمكَّنُه من السيطرة على قلوبهم ، فيزرع فيها بذور المعاصي والآثام ، ويُنمِّي فيها حبَّ الشهوات واللذات فيحصد ثمار ذلك بُعْدًا عن منهج الله الذي رسمه لعباده في حياتهم الدنيا، فيحقِّق بذلك أمنيته ، ويصل إلى هدفه ، فيخرج الإنسان بذلك من دائرة الإيِّمان ، وبالتالي من جنَّة الرَّحْمَنِ سبحانه وتعالى ، كما خرج هو بعصيانه وإبائه السجود لآدم عليه السلام .

وهذه هي مجموعة من الأشكال والصُّور التي عرضها الشَّيْطَانُ على بني آدم كما صَوَّرتها وجَسَّدت ملامحها لغة القرآن الكريم .

### الصُّورَةُ الْأُولَى : سَبِيلُ (2) الْإِيتِيَانِ (أَتِي)

عندما سلك الشَّيْطَانُ سبيل العصيان وعرف أنَّه من الهالكين أقسم على غواية بني الإنسان انتقاماً منهم وبغضاً لهم ، وحسداً على منزلتهم عند ربِّهم ، فالجنَّة أعدت لهم إلا من أبى ، والنَّار أعدت له ومن تبعه منهم أجمعين ، فكانت بداية الشَّيْطَانِ مع أول سبيل ترصَّد به لبني الإنسان كما صَوَّرَه القرآن الكريم بـ ( القعود ) لهم على صراط الله المستقيم ، لصدِّهم وإعراضهم عنه، ثم ثني بسبيل ( الإتيان ) كمحاولة منه لاحتوائهم وإمكان السيطرة عليهم ، بحيث لا يدع لهم باب خير إلا أغلقه، ولا شعاع نور إلا أطفأه ، فيغلق عليهم بذلك جميع

(1) قال أبو عبيدة : الشَّيْطَانُ اسم لكل عارم من الجنِّ والإنس والحيوانات . المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ( ش ط ن ) ص 383 - مكتبة الأنجلو المصرية 1970 م .

(2) السَّبِيلُ : الطَّرِيق الذي فيه سهولة ... ويستعمل السَّبِيلُ لكل ما يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شراً . السابق ( س ب ل ) ص 326 ، 327 .

السُّبُل التي تمكّنهم من فتح باب الصّلة بينهم وبين ربّهم ، ولفظة ( الإتيان ) تعني في عرف أهل اللغة ب: المجيء بسهولة<sup>(1)</sup> .

وفي التعبير بلفظة ( الإتيان ) ما يلحظ منه أن ذلك لم يحدث من الشيطان عفواً أو عن غير قصد، بل فيه إصرار على أداء رسالته، وجدُّ في تحصيلها ، وذلك كمبعوث لتأدية مهمة ما يريد أن ينفذها على وجه الدقّة دون تهاون أو تقصير ، فيجد الإنسان الطريق أمام عينيه معبداً لا حواجز فيه ولا موانع ، فيقع في شركه ، فتغلق العيون والقلوب أبوها ، إعلاناً للقبول ، وتسليماً بصداقة لا يرجى منها إلا الفساد والإفساد .  
ولكن ماذا يريد الشيطان من بني آدم عندما يأتي إليهم في أي صورة من الصُّور أو شكل من الأشكال ؟ .

هذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ، وهو ما صوّرتة الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَأَاتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾<sup>(2)</sup>  
فهذا الإتيان قد فصلته الآية في أربعة مداخل ، ثم ترجمه المفسرون في العبارات الآتية:  
المدخل الأول ( بين أيديهم ) : وتعني من قبل الآخرة ، فأزّين لهم التّكذيب بالبعث ، وبالجنّة ، وبالنّار .

المدخل الثاني ( من خلفهم ) : يعني من قبل الدنيا ، فأزّينها في أعينهم ، وأرغبهم فيها ، ولا يعطون فيها حقاً .

المدخل الثالث ( عن أيانهم ) يعني من قبل دينهم ، فإن كانوا على هدى شبّهته عليهم حتى يشكّوا فيه ، وإن كانوا على ضلالة زيّنتها لهم .

المدخل الرابع ( عن شمائلهم ) : يعني من قبل الشّهوات واللذات من المعاصي فأشهيها لهم<sup>(3)</sup> .

(1) السابق ص 7 . وينظر : تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري . تحقيق . أحمد عبد الغفور عطار 2261/6 - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة 1404 هـ - 1984 م .

(2) الأعراف من الآية 17 .

(3) ينظر هذه الدلالات في : تفسير مقاتل بن سليمان . تحقيق . أحمد فريد 385/1 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى 1424 هـ - 2003 م ، والمحور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية - تحقيق . المجلس العلمي بفاس 23/7 - 1400 هـ - 1980 م ، والجامع لأحكام القرآن ( تفسير القرطبي ) تحقيق . هشام سمير البخاري 175/7 - عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية - 1423 هـ - 2003 م ، ومعالم التنزيل ( تفسير البغوي ) - حقّقه . محمد عبد الله النمر وآخرون - 218/3 - دار طيبة - الطبعة الرابعة 1417 هـ - 1997 م .

وقيل : " معناه - والله أعلم - ثم لآتينهم في الضلال من جميع جهاتهم ، وقيل من بين أيديهم ، أي لأضلنهم في جميع ما يتوقع ، وقيل أيضاً : لأخوفنهم بالفقر ، والحقيقة - والله أعلم - أي أنصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم (1) . "

وكأن الشيطان بهذه المداخل الأربعة قد أغلق على الإنسان كل جوانب النجاة ، فكلما اتجه إلى قبلة الخير وجدها موصدة ، ولكن قبلة الشر دائماً وأبداً مفتوحة على مصراعها ، وفي هذا تمهيد لقبول الشر والاحتكام إليه ، أو بالتعبير الصحيح تمهيد لقبول إتيان الشيطان والترحيب به ضيقاً عزيزاً في قلبه وعلى مائدته .

" وإنه سيأتي البشر من كل جهة : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيثار والطاعة . وهو مشهد شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب (2) . "

ولكن إذا كان الشيطان قد أغلق على بني الإنسان جميع الأبواب فلن يستطيع أن يحجب عنهم رحمة الله - ﷻ - ، لذلك قيل : " أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله (3) . "

إذا فتلك الحواجز التي بناها الشيطان حول بني آدم ليحيط بهم من كل جانب لن يكسر حدودها ، ويُقَوِّض أركانها إلا رحمة الله - ﷻ - ، فليسمع جميع بني البشر إلى إدراك هذه الرحمة ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتِنَافْسِ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴾ (4) .

### الصورة الثانية : سبيل الإحتناك ( ح ن ك )

ظهرت بوادر الغيرة والحسد منذ بدء الخليقة بأقبح صورها وأسوأ حالاتها وتفرعت منها

(1) معاني القرآن وإعرابه للزجاج. تحقيق د. عبد الجليل شلبي 324/2 - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية 1418 هـ - 1997 م .

(2) في ظلال القرآن . سيد قطب 1267/2 - دار الشروق - الطبعة الشرعية السابعة عشرة 1410 هـ - 1990 م .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 274/2 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى 1416 هـ - 1996 م .

(4) المطففين من الآية 26 .

جميع أشكال العنف والقسوة حتى كادت أن تأكل الأخضر واليابس لولا رحمة ربِّي .  
يرقى آدم - ﷺ - إلى عليين بسجود الملائكة له ، ويقذف الشيطان بحجارة من  
سجيل بعد إبائه الاستجابة لرَّبِّه والامثال له ، وفي هذه اللحظة يقسم الشيطان أمام ربِّه  
سبحانه وتعالى لئن أخره إلي يوم القيامة فلن يكون له هدف سوى إضلال بني آدم وصدِّهم  
عن طاعة ربِّهم .

" وقد علم الخبيث أنَّهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل  
مجهوده على إغوائهم ، ظنَّ وصدق ظنَّه ، فقال : ﴿ وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكِرِينَ ﴾ (1) .  
إذا فما أقسم به الشيطان وعزم عليه قد يكون من قبيل " قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ  
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ (2) فإنَّه يفيد أنه قال ما قاله هنا اعتماداً على الظنِّ ، وقيل إنَّه استنبط  
ذلك من قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ (3) ، وقيل : علم ذلك من طبع  
البشر لما ركب فيهم من الشَّهوات، أو ظنَّ ذلك لأنه وسوس لآدم، فقبل منه ولم يجد له  
عزماً (4) "

وقد وصل الغضب بالشيطان في هذا السبيل إلى أنه أقسم علي استئصال ذريه آدم  
والسيطرة عليهم إلا قليلا ، وذلك كما صوّره الفعل ( لأحتنكن ) في قول الله عزَّ وجلَّ :  
﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
لَأَحْتَنِكَ بِذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (5) .

فاحتناك الشيطان لبني آدم تتَّجه دلالاته ، أو قل مجازه نحو " لأستميلنهم ولأستأصلنهم ،  
يقال : احتنك فلان ما عند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره : أخذه كله  
واستقصاه ، قال :

(1) الأعراف من الآية 17 . تيسير الكريم الرَّحْمَن في تفسير كلام المنان ( تفسير السعدي ) . حقَّقه . عبد  
الرحمن بن معلا ص 284 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى 1420 هـ - 2000 م .

(2) سبأ من الآية 20 .

(3) البقرة من الآية 30 .

(4) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني 241/3 - دار المعرفة - بيروت  
- لبنان .

(5) الإسراء من الآية 62 .

نشكو إليك سنة قد أجحفت \*\*\* جهداً إلى جهْد فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلّفت<sup>(1)</sup>"

واستئصال الشيطان لبني آدم يعني الضلال والغواية ، حيث ذكر البغوي عن دلالة ( لأحتنكن ) : " لأستأصلنهم بالإضلال . يقال : احتنك الجراد والزرع : إذا أكله كله ، وهو من قول العرب : حنك الدابة يحنكها : إذا شدَّ في حنكها الأسفل حبلا يقودها ، أي : لأفودنهم كيف شئت ، وقيل لأستولين عليهم بالإغواء<sup>(2)</sup> " .

إذا فالشيطان يقسم بقوله ( لأحتنكن ) على دلالة : " فلاستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم<sup>(3)</sup> " .

" وهذه الألفاظ وإن اختلفت فإنها متقاربات المعنى ؛ لأن الاستيلاء والاحتواء بمعنى واحد ، وإذا استولى عليهم فقد أضلهم<sup>(4)</sup> " .

وقد برَّ الشيطان بقسمه عندما استجاب له كثير من بني البشر وخضعوا له ، فأحاط بهم ، ووجَّه وجهة وجوههم وقلوبهم ، وبني بينهم وبين الحق جداراً عازلاً يوجب عنهم جميع القيم والأخلاق التي تسعدهم ، وتضيء درب حياتهم ، فامتلك مشاعرهم وأحاسيسهم ، وسيطر على أفئدتهم .

ولكن هناك من عباد الله - ﷻ - من هم إلى الله أقرب ، وعن معصيته أبعد ، وإذا خيروا بين طاعة ربهم وهوى أنفسهم وشياطينهم كانت أنفاسهم تيمم في رحاب الله ، وقلوبهم تحيا مع سنَّة نبيهم - ﷺ - ، وهؤلاء لن يستطيع الشيطان أن يستولي عليهم ، أو أن يتمكن من إضلالهم ، أو امتلاك قلوبهم كما يقول ربنا - ﷻ - : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾<sup>(5)</sup> .

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى . علق عليه . محمد فؤاد سزكين 384/1 - مكتبة الخانجي - القاهرة - 1374 هـ - 1954 م . وينظر البيت في : جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري . تحقيق . أحمد محمد شاكر 489/17 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى 1420 هـ - 2000 م ، والجامع لأحكام القرآن 387/10 .

(2) معالم التنزيل 104/5 .

(3) في ظلال القرآن 2238/4 .

(4) جامع البيان 489/17 .

(5) طه من الآية 123 .

### الصورة الثالثة : سبيل الخطوات

تتعدّد الذنوب والمعاصي في عالم البشر لتعدّد سبل الشيطان ومسالكه ، حيث يجبو الشيطان في قلوب بني آدم وتحبو معه الذنوب والآثام عن طريق اللّمم منها ، حتى إذا ما تمكّنت منه ذهب به إلى طريق الكبائر ، والتي تعني محاربة منهج الله وشرعه الذي شرعه لعباده .

لذلك نهانا الله - ﷻ - في محكم كتابه عن اتباع (خطواته) التي هي إحدى سبله حتى لا يعبث بنا ويفسد علينا حياتنا ، فينتقل بنا من عالم عنوانه (الصغائر) إلى عالم عنوانه (الخارجون عن حدود الله)، وذلك بتوجيه رسالة إلى الناس عامّة ، ثم ثلاث رسائل إلى المؤمنين خاصّة (1) .

فرسالته إلى الناس عامّة تأتي في قول الله - ﷻ - : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

" فالخطوة - بالضم - : ما بين القدمين ، وجمع القلّة خطوات وخطوات وخطوات ، والكثير خطى (3) " .

ولكن دلالة (خطوات الشيطان) في القرآن الكريم كانت محور خلاف العلماء ، فقيل بأنّها عمله ، أو كل ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان ، أو خطؤه ، أو نزغاته ، أو تزيينه ، أو كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان ، أو ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين ، وقيل غير ذلك (4) .

وهذه التفسيرات " قريب معنى بعضها من بعض ؛ لأنّ كل قائل منهم قولاً في ذلك ، فإنّه أشار إلى نهى اتباع الشيطان في آثاره وأعماله (5) " .

(1) وهي عنوان الصورة الأولى في الرسالة الثالثة .

(2) البقرة الآيتان : 168 ، 169 .

(3) الصحاح 2328/6 .

(4) الدر المنثور للسيوطي 403/1 ، 404 - دار الفكر - بيروت 1993 م . وينظر : جامع البيان 31/3 ، 302 .

(5) جامع البيان 302/3 .

فالآية الأولى فيها إجمال بالتحذير من اتباع خُطوات الشيطان عامّة ؛ لأنّ اتباع خُطواته بداية ومقدمة للدخول في عالمه الذي يستعبد به قلوب بني آدم ، فإذا ما استعبدها فله عليهم حقّ السَّمع والطّاعة .

لذلك تأتي الآية الثانية " كالتفصيل لجملة عداوته، وهو مشتمل على أمور ثلاثة: أولها: الشُّوء ، وهو متناول جميع المعاصي، سواء كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب ، وثانيها: الفحشاء ، وهي نوع من الشُّوء ؛ لأنها أقيح أنواعه ، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي ، وثالثها: ﴿ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ كأنه أقيح أنواع الفحشاء ؛ لأنّه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر ، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ فيدخل في الآية أن الشَّيْطَان يدعو إلى الصَّغائر والكبائر والكفر والجهل بالله (1) .

وقيل عن ( الفحشاء ) الزَّنا ، ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهو ما كانوا يجرِّمون من البحائر والسَّوائب والوصائل والحوامي ويزعمون أن الله حرَّم ذلك (2) . ومن هنا فأوامر الشَّيْطَان تتمُّ بشكل غير مباشر ، يتتبع بنو الإنسان خُطواته ، ويسيروا على نهجه ، فيأتمرون بأمره ويسبِّحون له ، ويتنهون بنهيه كأثمهم له عابدون .

ثم تأتي آية أخرى بالأمر المباشر من الشَّيْطَان لأوليائه بعد أن صرفهم عن طريق الهدى بقوله كما حدَّثنا القرآن الكريم ﴿ وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ ﴾ (3) ، وذلك بعد أن صاروا عبيداً له ، توجَّههم أهوائهم وشهواتهم ؛ يأمرهم فيسلمون ويستسلمون ، وكأثمهم قد أصبحوا طوع أمره ، يأمرهم بالحرام فيتبعوه ، وينهاهم عن الحلال فينتهوا عنه .

والعرض هنا ليس محلاً للقبول أو الرِّفض ، بل حقيقة الأمر ، فإذا أمرهم وقع أمره في قلوبهم ، وإذا أشار لهم لهثوا الشرى تلبية لدعوته ، حيث ربَّاهم على طاعته وامتنال أوامره ، فما كان منهم إلا الإحسان جزاء الإحسان إليهم - كما يعتقدون - .

(1) مفاتيح الغيب للفخر الرازي 5/5 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1412 هـ - 2000م

. وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 91/1 ، والدر المنثور 128/2 .

(2) ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 91/1 ، والدر المنثور 404/1 .

(3) النساء من الآية 119 .

وهذه هي بعض أوامر الشيطان التي أصدرها صراحة لهذه الفئة الضالة كما صَوَّرَهَا القرآن الكريم في بعض آياته ، حيث يقول سبحانه وتعالى على لسانه : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا . وَلَا ضَلُّنَّهُمْ وَلَا مَنِينَ لَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ ءَأَذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (1) ، فهذا النَّصِيبُ المفروض من بني الإنسان قد خَرَّ رَاكِعًا أمام أوامر الشيطان فظنَّ أن تقطيع آذان الأنعام وتغيير خلق الله من باب الحقِّ ، ولكن الحقَّ أن الحقَّ منه براء .

فالأمر الأول ﴿ فَلْيَبْتِكُنَّ ءَأَذَانَ الْأَنْعَمِ ﴾ : يعني ليقطعنَّ آذان الأنعام ، وهي البحيرة للأوثان ، حيث كانوا يقطعون أطراف آذانها ويحرمونها (2) ، ف " هذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحلَّ الله ، أو تحليل ما حرَّم الله ، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو أكبر من الإضلال (3) " .

والأمر الثاني : ﴿ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ : يعني ليبدلنَّ دين الله ، وقيل : فليغيرنَّ خلق الله من البهائم بإخصائهم إيَّاهَا ، أو فقء الأعين وقطع الآذان ، وذلك كله تعذيب للحيون ، وتحريم وتحليل بالطغيان ، وقول بغير حجة ولا برهان ، والآذان في الأنعام جمال ومنفعة ، وكذلك غيرها من الأعضاء ، فلذلك رأى الشيطان أن يغيِّر خلق الله تعالى (4) .

" فهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم ، والوشر والنَّمص والتفليج الحسن ، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيَّروا خلقة الرَّحْمَنِ ، وذلك يتضمن التَّسَخُّط من خلقه والقدرح في حكمته ، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقه الرَّحْمَنِ ، وعدم الرِّضَا بتقديره وتدبيره ، ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة ، فإنَّ الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحقِّ وإيثاره ، فجاءتهم الشَّيَاطِينُ فاجتالتهنَّ عن هذا الخلق الجميل ، وزينت لهم الشَّرَّ والشُّرك والكفر والفسوق والعصيان (5) ... " .

(1) النساء من الآية 118 ، والآية 119 .

(2) ينظر : جامع البيان 215/9 ، وتفسير مقاتل بن سليمان 258/1 ، والجامع لأحكام القرآن 389/5 .

(3) تيسير الكريم الرَّحْمَنِ ص 203 .

(4) ينظر : جامع البيان 215/9 ، وتفسير مقاتل بن سليمان 258/1 ، والجامع لأحكام القرآن 389/5 .

(5) تيسير الكريم الرَّحْمَنِ ص 203 .

ومن هنا فقد ارتدى هذا الإنسان رداء الشيطان ، وحذا حذوه ، ونهج نهجه ، واثممر بأمره ، واتبع سبيله ، ومن كان كذلك فلن تجد له ولياً مرشداً .

فإذا كان بعض الناس يعتقد أن صغائر الذنوب تفنى أمام كبيرها فهو اعتقاد خاطئ ؛ لأن من حَبَّات الرِّمال تكون الجبال الشُّم الرّواسي ، ومن يوشك قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فمن تتبَّع حُطوات الشَّيْطَان يوشك أن يقع تحت سلطانه ، فيلبي نداءه ، ويستجيب لأوامره .

" والاقْتداء بالشَّيْطَان : إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشريَّة ؛ فإن الشَّيَاطِين موجودات مدركة لها اتصال بالنفوس البشريَّة لعله كاتِّصال الجاذبية بالأفلاك والمغناطيس بالحديد ، فإذا حدث التَّوجُّه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة حدثت في النَّفس خواطر سيئة ، فإن أرسل المكلف نفسه لاتباعها ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة حقَّقها في فعله ، وإن كبحها وصدَّها عن ذلك غلبها ، ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة وكمل لنا ذلك بالهدى الديني عوناً وعصمة عن تلبيتها لئلا تضلنا الخواطر الشَّيْطانية حتى ترى حسناً ما ليس بالحسن (1) " .

وبذلك يصبح هذا الإنسان أسيراً لشيطنه ، قد تشربَّ جسده بحبِّ الهوى والشَّهوات ، فأصبحت عالمه بعد أن خرج من هذا العالم الذي فطره الله عليه ؛ وذلك بعد أن أضلَّه الله على علم وختم على قلبه ، فلم يعد له مخرج سوى طاعة أمره وتنفيذ رغباته حتى يبقى له وجود في هذا الوجود في اعتقاده .

والشَّيْطَان في هذا السَّبيل يُشَرِّع لأوليائه ويضع دستوراً لهم ، حيث يعرض عليهم المعصية في صورة الطَّاعة ، وذلك من خلال بعض المناهج المكذوبة والخرافات الوهميَّة التي لا حقيقة لها إلا في قلوبهم المريضة ونفوسهم الأمارة بالسُّوء دائماً .

فليعصم كُلُّ إنسانٍ مِنَّا نفسه بعاصم من الله وخوف ورجاء حتى تثبت قوة إرادته بل قوة عقيدته : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (2) "

(1) التحرير والتنوير 103/2 .

(2) آل عمران من الآية 101 .

### الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ : سَبِيلُ الْفِتْنَةِ ( فَتَان )

رسالة عامة من ربِّ العباد - ﷻ - إلى بني البشر جميعًا ، تخطُّ سطورها معالم الطريق المستقيم ، وآداب المنهج السَّويِّ الذي لا يجيد عنه إلا زائغ أوهالك ، تأتي ضمن تحذير عام من خداع الشَّيْطَان ومكره الذي يحيق بأوليائه ، تحت باب سُبُلِ الشَّيْطَان ، ومن خلال عنوان سبيل ( الفتنة ) ، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّآ جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

فجماع معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب : إذا أذبتها بالنار لتميز الردى من الجيِّد (2) .

يقول الجوهري : فتنت الذهب : إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته (3) .

" وجعلت الفتنة كالبلاء في أنها يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً . قال الله تعالى فيها : ﴿ وَنَبَلُّوكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ فَتْنَةً ﴾ (4) ، وقال في الشدة : ﴿ إِنَّمَا حُنُّ فِتْنَةٍ ﴾ (5) ... والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد ، كالبليَّة والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، وغير ذلك من الأفعال الكريمة . ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بصد ذلك (6) ... " .

فإذا كانت ( الفتنة ) ابتلاء واختباراً فهي في حقِّ الشَّيْطَان مكر وخداع وضلال ، حيث ينسج لبني الإنسان بعض الأساطير والخرافات التي تحيد بهم عن منهج ربِّهم ، فينخدعون

(1) الأعراف الآية 27 .

(2) لسان العرب 3344/5 .

(3) الصحاح 2175/6 .

(4) الأنبياء من الآية 35 .

(5) البقرة من الآية 102 .

(6) المفردات ص 559 ، 560 .

بأوهامه ، ويستجيبون لمكره وخداعه ، وذلك كما حدث لأبيهم آدم - عليه السلام - وزوجه حواء .  
فهذه الرسالة فيها " يقول تعالى ذكره : يا بني آدم ، لا يخذعنكم الشيطان فيبدي  
سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم ، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختباره  
إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما ، فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخداعه ، من الجنة ، ونزعه  
عنها ما كان ألبسهما من اللباس ، ليريها سوءاتهما بكشف عورتها ، وإظهارها لأعينهما بعد  
أن كانت مستترة (1) " .

ومن هنا ، وعندما يلبي الإنسان نداء شيطانه ويرضى بمكره وخداعه فلا يأمن على نفسه  
من كشف عوراته - ظاهرة وباطنة - أمام نفسه وأمام الناس ، فتبدو عيوبه وتنكشف  
مساوئه ، وكأنها غدت قصّة تروى للمسافر والمقيم ، يتغنّى بها كل غاد وعائد ؛ وذلك لأنه  
أبى أن يستجيب لنداء ربّه وتحذيره ، فكانت النتيجة أن أزال الله عنه ستره ، وفضحه على  
رءوس الخلائق في الدنيا والآخرة .

إذاً فالدلالة واضحة المعالم ، والنهي صريح لا شبهة فيه ، ف " فتون الشيطان : حصول  
آثار وسوسته ، أي لا تمكّنوا الشيطان من أن يفتنكم ، والمعنى : النهي عن طاعته ، وهذا من  
مبالغة النهي ، ومنه قول العرب : لا أعرفك تفعل كذا : أي لا تفعلن فأعرف فعلك ، وقولهم  
: لا أرينك هنا : أي لا تحضرن هنا فأراك ، فالمعنى : لا تطيعوا الشيطان في فتنته ، ومثل هذا  
كناية عن النهي عن فعل والنهي عن التعرّض لأسبابه ، وشبه الفتون الصادر من الشيطان  
للناس بفتنة آدم وزوجه إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه ، فأخرجهما من نعيم  
كانا فيه ، تذكيراً للبشريّة بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم ، وشملت كل أحد من النوع ،  
إذ حرم من النعيم الذي كان يتحقّق له لو بقي أبواه في الجنة وتناسلا فيها ، وفي ذلك أيضاً  
تذكير بأن عداوة البشر للشيطان موروثه ، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده ... لأنّ  
انكشاف السوء من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف الناس (2) " .

فهذه الصورة تتضمن تنبيهاً وتحذيراً وتهديداً من فتنة الشيطان، حتى لا يُرد الإنسان على

(1) جامع البيان 373/12 . وينظر : الجامع لأحكام القرآن 186/7 ، ومعالم التنزيل 223/3 ، وإرشاد  
العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي 222/3 - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(2) التحرير والتنوير 76/8 ، 77 .

عقبيه بعد إذ هداه الله للإيمان ، وعَلَّمَهُ قواعد الدين وحدوده ، فما مِنْ أحد يراه من أولي الألباب إلا ويعلم أنه عاص لمولاه - ﷺ - ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

### الصورة الخامسة : سبيل الاستفزاز ( فازز )

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل هيئة، كريم الأخلاق ، عزيز النفس ، يأبى أن يذل أو يهان ، رزقه الله من الطيبات ، وفضَّله على كثير من المخلوقات . صور ذلك المعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (2) ، ولكن مع كل هذه النعم الربانية إلا أنه قد رضي لنفسه الذل والهوان ، والاستكانة والخضوع فسَلَّمَ نفسه للشيطان يوجَّهه كيف يشاء ، فلا تستقر سفينته ، ولا يسكن قلبه ، ولا تطمئن جوارحه ؛ وكأنه ريشة في مهبِّ الريح إلا من رحم ربِّي . وصورة الشيطان التي يترجم لها هذا السبيل تجتمع فيها كل ألوان القوَّة وأشكال الشدَّة ، حيث يخرج فيها كل ما في جعبته ، حرصاً على إزعاج مرقد الإنسان ، وعلى تغيير سمت حياته ، وذلك تحت عنوان سبيل ( الاستفزاز ) .

والاستفزاز في عرف أهل اللغة يساوي الإزعاج ، حيث قيل : " فَزَّهُ فَزًّا ، وَأَفَزَّهُ : أَفْزَعَهُ وَأَزَعَجَهُ وَطَيَّرَ فَوَادَهُ .. وَاسْتَفَزَّهُ مِنَ الشَّيْءِ : أَخْرَجَهُ وَاسْتَفَزَّهُ : حَتَلَهُ حَتَّى أَلْقَاهُ فِي مَهْلَكَةٍ . وَاسْتَفَزَّهُ الْخَوْفُ : أَي اسْتَخَفَّهُ (3) " .

وهذه اللفظة بكل مشتقاتها لم تذكر في كتاب الله - ﷻ - إلا في ثلاثة مواضع ، وفي سورة واحدة ، والدلالة فيها جميعاً تتجه نحو الإزعاج عن طريق الحيلة والمكر والخداع ، رغبة في الاستخفاف بالعقول ، وظناً وأملاً في أن يكون ذلك سبيلاً لتحقيق الأهداف والغايات .

(1) النور من الآية 63 .

(2) الإسراء من الآية 70 .

(3) لسان العرب لابن منظور الإفريقي . تحقيق . علي عبد الله الكبير وآخرين 409/5 - دار المعارف . وينظر : الصحاح 890/3 ، والمفردات ص 570 .

وقد استخدمت في الآية الأولى كسبيل عام من سُبُل الشَّيْطَان ، وفي الثانية كدليل مكر وخداع من اليهود ، ثم في الثالثة قسوة وجبروت من فرعون لبني إسرائيل .

وقد ظهر دليل مكر اليهود وخداعهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُوا نَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ (1) .

فـ"استفزونك" بمعنى ليفتنونك عن رأيك ، أو يزعجونك ويستخفونك ، وهم يهود المدينة وناحيتها كحبي بن أخطب وغيره ، وذلك أتمهم ذهبوا إلى المكر برسول الله - ﷺ - فقالوا : إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء ، وإنما أرض الأنبياء الشام ، ولكنك تخاف الروم فإن كنت نبياً فإخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فنزلت (2) " .

ثم يأتي مكر فرعون واستخفافه بقومه في قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ (3) ؛ حيث " أراد فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها ، أو ينفهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبضه (4) " .

وأما الاستفزاز كسبيل من سُبُل الشَّيْطَان فقد أجمله الله - ﷻ - ، ثم بيَّنه تفصيلاً في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (5) .

فلفظة ( الاستفزاز ) في الآية تحمل جميع دلالات المكر والحيلة والدَّهَاء ، من أجل الاستخفاف بعقول بني آدم جميعاً وإزعاجهم ، وذلك على وجه استذل واستخف واستجهل

(1) الإسراء من الآية 76 .

(2) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . تحقيق . عادل أحمد عبد الموجود وآخرين 62/6 - دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان 1422هـ - 2001م . وينظر : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزخشري 685/2 - دار الكتاب العربي .

(3) الإسراء الآية 103 .

(4) الكشف 2 / 698 .

(5) الإسراء الآية 63 .

بعقول من استطعت منهم .

ولكن ما هي طرق الاستفزاز ومداخله التي يستحوذ بها عليهم، ويتمكن من خلالها على قلوبهم ؟ .

أجابت الآية الكريمة على هذا السؤال وفصلته تفصيلا ، ثم بين دلالاته المفسرون بأقوالهم وتوجيهاتهم على نحو اتضح معه الرؤية واكتملت من خلاله الصورة ، حتى لا يظن ظان أن الجهل قد استحوذ عليه أو تملكه ضباب فلم يبصر معه الحقيقة .

**الطريق الأول : الصّوت :** وهو كل داع إلى معصية الله تعالى ، أو الغناء والمزامير واللهو ، أو الوسوسة .

**الطريق الثاني : الخيل والرّجل :** وهو كل راكب وماش في معصية الله ، أو إن له خيلا ورجلا من الجنّ والإنس ، فما كان من راكب وماش يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالته ، أو كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مشى في معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد بغية فهو للشيطان .

**الطريق الثالث : الأموال والأولاد :** فالأموال إنفاقها في معصية الله ، أو هي التي أصابوها في غير حلّها ، أو ما كانوا يجرّمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، أو ما كانوا يذبحونه لأهتهم ، والأولاد : أولاد الزنا ، أو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيه من الجرائم ، أو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد اللات وعبد شمس ونحوه ، أو صبغة أولادهم في الكفر حتى هوّودهم ونصّروهم ، كصنع النصارى بالغمس في الماء الذي لهم . وقول خامس روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل امرأته ولم يسمّ انطوى الجنّ على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِئِنِّنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (1) .

**الطريق الرابع : الوعد والأمانى :** أي منّهم الأمانى الكاذبة ، وأنّه لا قيامة ولا حساب ، وأنّه إذا كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم . يقوّيه قوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ

(1) الرّحمن الآية 74 . والحديث منكر مقطوع . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة . محمد بن ناصر الألباني 603/12 - دار المعارف - الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م . وينظر : نواذر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ للترمذي . تحقيق . عبد الرحمن عميرة 384/1 - دار الجيل - بيروت 1992م .

وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١﴾ : أي باطلا ، وقيل : أي عدهم النصر على من أرادهم بسوء (2) ، " وهذا الأمر للشيطان تهديد ووعيد له . وقيل استخفاف به وبمن أتبعه (3) . "

وفي آية أخرى يقسم الشيطان على بني آدم وخاصّة الطّغاة منهم بقوله كما حدّثنا القرآن الكريم: ﴿ وَلَا مُنِيْنَهُمْ ﴾ (4) أي: " ﴿ وَلَا مُنِيْنَهُمْ ﴾ بالباطل ولأخبرتهم ألا بعث ولا جنّة ولا نار (5) " .

وفي آية أخرى يقول ربّنا - ﷻ - ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ (6) : " فإنّه يعدّهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا ، ويخوّفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ (7) ، ويخوّفهم عند إثارة مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير (8) " .

فهذا الباطل الذي استخفّ به الشيطان عقول بني آدم " هو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، وفي المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرّجل على طريق المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصّوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفتح المنسوب والمكيدة المدبّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرّجال ! ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (9) وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية ... والتعبير يصوّر

(1) النساء الآية 120 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 287/10 : 289 . وينظر : معاني القرآن للفراء . تحقيق . أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النّجار 127/2 - 1955 م ، ومعاني القرآن وإعرابه للزّجاج 250/30 ، وجامع البيان 490/7 ، 493 .

(3) الجامع لأحكام القرآن 290/10 .

(4) النساء من الآية 119 .

(5) تفسير مقاتل بن سليمان 258/1 . وينظر : تيسير الكريم الرّحمن ص 203 .

(6) البقرة من الآية 268 .

(7) آل عمران من الآية 175 .

(8) تيسير الكريم الرّحمن ص 203 .

(9) الإسراء من الآية 64 .

في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة! وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة : ﴿ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾<sup>(1)</sup> ، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص ، والوعد بالغني من الأسباب الحرام ، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعتف والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعزُّ عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرّجة ، ويُرِّين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرّحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة ! اذهب مأذوناً في إغواء من يجنون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ؛ لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك ! ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾<sup>(2)</sup> .

فهذه هي بعض طرق الشيطان ومكايده ، حيث ينتقل بالإنسان من سوء إلى أسوأ ، ومن باب من أبواب الاستخفاف بعقولهم إلى أبواب ، ومن لون واحد من ألوان الآثام والذنوب والمعاصي إلى عدّة تشكيلات منها ، وكأنّه يبدأ معهم بمرحلة تدريجية حتى يستعبد قلوبهم ، فهو يغريهم أولاً بصوته ، ثم يجمع لهم ما يشاء من خيله ورجله ، ثم يشاركهم في الأموال والأولاد ، وأخيراً يعدهم ويمنيهم الباطل فيعرضه في صورة الحق حتى ينتهي بهم إلى عالم لا أخلاق فيه ولا خلاق .

فهذا هو فرعون واستخفافه بقومه والهاوية التي قذفت به وبهم ، وهذا هو استخفاف اليهود ومحاولة مكرهم بحبيب الحق محمد - ﷺ - ، ومصيرهم الذين آلوا إليه دنيا وأخرى ، فماذا عن خير أمة أخرجت للناس ؟ .

سؤال يجيب عنه كل من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، وكل من تعلق قلبه بالله وخضع لتعاليم الشّرع الحنيف ، فأجب أيها المسلم قبل أن ينقطع الجواب وتنعدم الأسباب ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾<sup>(3)</sup> .

(1) الإسراء من الآية 64 .

(2) الإسراء الآية 65 . في ظلال القرآن 4/2239 .

(3) الشعراء الآيتان 88 ، 89 .

## الصورة السادسة : سبيل القعود ( ق ع د )

ليست قضية الشيطان في هذا السبيل إثارة الخطرات ، أو طمس المعالم وإثارة الشهوات ، أو تزييف الحقائق بالمكر والخداع في قلوب بني آدم ، بل قضيته هي التي أعلنها صراحة منذ بدء الخليقة دون تعريض أو تلميح ، أو كذب أو تزييف ، وهي الخصومة والعداوة إلى يوم الدين ، فهو يسأل نفسه دائماً كيف يجيا الإنسان في ظلال جنة الدنيا إن رضى بمنهج ربه ، وجنة الآخرة إن كان لهذا المنهج واقع في حياته ، ويجيا هو في عالم الكذب والتفاق وسوء الأخلاق في الدنيا وما له في الآخرة من نصيب ؟ .

لذلك فهو في هذا السبيل يحرص على إضلال بني البشر غاية الحرص ، ويسعى بكل جده واجتهاده إلى إدراك هذه الغاية ، ولن يدعهم مقسمًا على ذلك حتى يحول بستان حياتهم إلى جحيم ، ونور صباحهم إلى صريم ، فتفنى جنات ربهم التي أعدّها لهم ولم يعد لها بقاء ، فيصير المآل في النهاية إلى خسران وضلال مبين .

والحرص على إدراك هذه الغاية جسده سبيل ( القعود ) الذي ذكره ربنا - ﷻ - في قوله : ﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾<sup>(1)</sup> .

فالقعود : نقيض القيام ، قعد يقعد قعودًا ومقعدًا : أي جلس<sup>(2)</sup> ، وأما القعود على صراط الله المستقيم فهو سبيل من سبيل الشيطان فيه معنى الحزم والإصرار على غواية بني البشر ، وصرهم عن منهج الله وطريقه السوي ، وفي قسمه دلالة على جده واجتهاده وإلزامه أن يبرر بقسمه ، فالأمر عنده ليس مجرد محاولة بل تأكيد وعزم ، لذلك قال ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾ ، وهو يحمل دلالة "الألزم من الصراط، ولأسعى غاية جهدي على صدّ الناس عنه وعدم سلوكهم إياه"<sup>(3)</sup> .

" وصراطك المستقيم " تعني طريقك القويم ، وذلك دين الحق ، وهو الإسلام وشرائعه<sup>(4)</sup> .

إذا فالشيطان يدور مع الإنسان حيث دار ، يعرض له في كل مقصد من مقاصد الخير ،

(1) الأعراف الآية 16 .

(2) لسان العرب 5 / 3686 .

(3) تيسير الكريم الرحمن ص 248 .

(4) جامع البيان 334 / 12 . وينظر : المحرر الوجيز 22 / 7 .

وفي كل درب من دروبه ، حتى يذر دين ربّه ويرضى بدينه ، فهو يخاطب ربّه بهذه الكلمات والعبارات التي ترجمها المفسّرون بمعنى : " لأصدنّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ، ولأغوينهم كما أغويتني ، ولأضلنهم كما أضللتني (1) " ، ويحتمل قعود الشيطان " على طريقهم أو في طريقهم (2) " .

وفي التعبير القرآني تحدّد عجيب وعداء مستحکم ، بل قل : " هو الإصرار المطلق على الشّر ، والتّصميم المطلق على الغواية ، وبذلك تتكشف هذه الطّبيعة عن خصائصها الأولى ، شرٌّ ليس عارضاً ولا وقتياً ، إنما هو الشّرّ العامد القاصد العنيد ... إنّه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصدّد عنه كل من يهّمّ منهم باجتيازه ، والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسّاً ، فالله سبحانه جلّ عن التحيّر ، فهو إذن طريق الإيثار والطاعات المؤدّي إلى رضي الله (3) " .

وإذا كان القرآن الكريم قد أجمل في الآية ( قعود الشيطان ) للإنسان على صراط الله المستقيم فإن حديث النبي - ﷺ - قد فصله وبيّنه ، حيث " أخرج أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيثار عن سبرة بن الفاكه سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم في طريقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلّم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفارس في طولِه فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : هو جهد النَّفس والمال فتقاتل فتقتل فتكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد ، قال رسول الله - ﷺ - : فمن فعل ذلك فمات أو وقصته دابته فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنّة (4) " .

(1) جامع البيان 1/334 .

(2) معاني القرآن للفراء 1/375 . وينظر : المحرر الوجيز 7/21 .

(3) في ظلال القرآن 2/1266، 1267 .

(4) الدر المنثور 3/426 . وينظر : المعجم الكبير للطبراني . تحقيق . حمدي عبدالمجيد السلفي 7/117 - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - الطبعة الثانية 1404هـ - 1983م ، وبغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة للهيثمي . تحقيق د. حسن أحمد صالح الباكري 1/150 (باب فيمن أسلم وهاجر) - مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة - الطبعة الأولى 1413هـ - 1992م ، ومصنف بن أبي شيبة . تحقيق . محمد عوامة 5/293 - الدار السلفية الهندية القديمة .

فإذا كان الشيطان يمتلك هذه القوة الوهمية ويستطيع من خلالها أن يصدّ بني البشر عن ذكر ربهم ، ويقسم على ذلك فإنّ الإنسان يمتلك القوة الحقيقية التي جسّدت في الإيمان ، وحُجيت بمحاسن الأخلاق ، فيستطيع غزو شهوات نفسه والقضاء عليها ، وإلزامها بصدّ ضربات شيطانه حتى تهوى إلى عالم فسيح لا خصب فيه ولا نماء .

فكما أقسم الشيطان بالقعود على صراط الله المستقيم وصدّ بني الإنسان عنه فليقسم الإنسان بالسّير على هدى ربّه القويم ، ونور كتابه المبين ، وسبيل خير المرسلين حتى يكتب من الخالدين في جنّات النعيم .

فهذه هي حقيقة الشيطان وحقيقة مكره وكيده ببني آدم ، وسبّله التي يوجّهها لهم جميعاً كما أظهر جوهرها وبيّن معالمها القرآن الكريم ، فهل يتراءى الحق في قلوب من تبقي من أمة محمد - ﷺ - ، ويزغ ضوء الصبح أمام أعينهم كما تراءى مع الصحابة - رضوان الله عنهم - وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، أم تحيط بهم سبيل الجهالة كما أحاطت بكثير ممن كان قبلهم؟ .

" فمتى اتصل القلب بالله واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، متى أيقظ في روحه النّفخة العلوية فأشرق وأنارت ... فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان(1) " .

فليقعد الشيطان لبني الإنسان على كل طريق من طرق الخير ، وليغلق جميع النوافذ والأبواب التي تصل العبد برّبّه ، وليتشكّل ويتلوّن كيفما شاء ، فليست صورته في النهاية إلا صورة تمثال من ثلج يذوب ويتساقط خجلا وحياء أمام النّفس المؤمنة الراضية بقضاء ربّها وقدره ، والواثقة من فضل الله وتفوّضه عليها وإحسانه إليها ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (2) .

(1) في ظلال القرآن 4/2239 .

(2) الأعراف من الآية 156 .

obeyikandali.com